

تاريخ الترجمة

لقد كانت الترجمة ومازالت إحدى دعائم الحضارات والثقافات والنهضات العلمية عبر العصور، حيث أدت دورا بالغ الأهمية في نقل المعارف والموروثات الثقافية وبفضلها، استطاع اللسان البشري أن يصون هذه الكنوز ويتناقلها عبر الزمن. لنا أن نتساءل عن الأسباب التي جعلت الترجمة تحظى بهذا القدر من الأهمية و هذا الحيز من الانشغال... هذا ما يجعلنا نرجع إلى الوراء و نتتبع مسارها فرما نجد الجواب الشافي.

ولعلنا نصطدم بداية بقصة "برج بابل" الأسطورية التي تعطي تفسيراً لظهور الترجمة بأسلوب مشوق وممتع سرعان ما يرسخ في ذهن القارئ لكنها تظل أسطورة ليس إلا. كما أن هنالك شواهد أخرى عديدة تؤكد على فرضية وجود الترجمة منذ زمن كوسيلة نقل بين لغات العصر، من بين تلك الشواهد: **حجر رشيد** (بالإنجليزية: Rosetta stone) هو حجر نقش عليه نصوص هيروغليفية وديموطيقية ويونانية، كان مفتاح حل لغز الكتابة الهيروغليفية، سمي بحجر رشيد لأنه اكتشف بمدينة رشيد الواقعة على مصب فرع نهر النيل في البحر المتوسط. اكتشفه ضابط فرنسي اسمه (بوشار) في 19 يوليو عام 1799م إبان الحملة الفرنسية وقد نقش عام 196 ق.م. وهذا الحجر مرسوم ملكي صدر في مدينة منف عام 196 ق.م. وقد أصدره الكهان تخليداً لذكرى بطليموس الخامس، وعليه ثلاث لغات الهيروغليفية والديموطيقية (القبطية ويقصد بها اللغة الحديثة لقدماء المصريين) والإغريقية، وكان وقت اكتشافه لغزا لغويا لا يفسر منذ مئات السنين، لأن اللغات الثلاثة كانت وقتها من اللغات الميتة، حتى جاء العالم الفرنسي "جون فرانسوا شامبليون" Jean François Champollion وفسر هذه اللغات بعد مضاهاتها بالنص اليوناني ونصوص هيروغليفية أخرى، وهذا يدل على أن هذه اللغات كانت سائدة إبان حكم البطالمة لمصر لأكثر من 150 عاما، وكانت الهيروغليفية اللغة الدينية المقدسة متداولة في المعابد، واللغة الديموطيقية كانت لغة الكتابة الشعبية (العامية المصرية)، واليونانية القديمة كانت لغة الحكام الإغريق، وكان قد ترجم إلى اللغة اليونانية لكي يفهموه. وكان محتوى الكتابة تمجيدا لفرعون مصر وإنجازاته الطيبة للكهنة وشعب مصر، وقد كتبه الكهنة ليقراء العامة والخاصة من كبار المصريين والطبقة الحاكمة. وكان العالم البريطاني "توماس يانج" Thomas Young قد اكتشف أن الكتابة الهيروغليفية تتكون من دلالات صوتية، وأن الأسماء الملكية مكتوبة داخل أشكال بيضاوية (خراطيش)، واستطاع شامبليون فك شفرة الهيروغليفية عام 1822م، لأن النص اليوناني عبارة عن 54 سطرا وسهل القراءة مما جعله يميز أسماء الحكام البطالمة المكتوبة باللغة العامية المصرية. وبهذا الكشف، فتح آفاق التعرف على حضارة قدماء المصريين وفك ألغازها، وترجمة علومها بعد إحياء لغتهم بعد موتها عبر القرون. وأصبحت الهيروغليفية وأبجديتها تدرس لكل من يريد دراسة علوم المصريين. والحجر أخذه البريطانيون من القوات الفرنسية، ووضعوه في المتحف البريطاني. كما شهدت منطقة الشرق الأوسط أشهر الترجمات و أبرزها خلال القرن الثالث قبل الميلاد سواء في نقل "ملحمة قلقاميش" من السومارية إلى الحثية و الحورية أو حتى قانون "حمو رابي" الذي نقش على نصب تذكاري بالأكدية و ترجم إلى الحورية. فقدم وجود

الترجمة قدم الدهر لا يعني أنها كانت عملية اعتباطية بل بالعكس كانت مقيدة بقوانين في النقل، لنا أن نميز هنا بين العرب و الغرب.

1- العرب والترجمة:

عرف العرب الترجمة منذ أقدم عصورهم، ولقد أشار الدكتور عبد السلام كفا في كتابه "في الأدب المقارن" إلى أن العرب كانوا "يرتحلون للتجارة صيفا وشتاء ويتأثرون بجيرانهم في مختلف نواحي الحياة، لقد عرفوا بلاد الفرس، وانتقلت إليهم ألوان من ثقافتهم.. وانتقلت بعض الألفاظ الفارسية إلى اللغة العربية، وظهرت في شعر كبار الشعراء، وكان الأعشى من أشهر من استخدموا في شعرهم كلمات فارسية. كذلك عرف البعض جيرانهم البيزنطيين.

إذن احتك العرب منذ جاهليتهم بالشعوب الثلاثة المحيطة بهم، وهي الروم في الشمال والفرس في الشرق والأحباش في الجنوب، ومن الصعب قيام مثل هذه الصلات الأدبية والاقتصادية دون وجود ترجمة، وإن كانت في مراحلها البدائية. وفي زمن الدولة الأموية، تمت ترجمة الدواوين، واهتم بحركة الترجمة الأمير خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان.

كانت الترجمة في العصر العباسي بعد الفتوحات العربية، واتساع رقعة الدولة العربية نحو الشرق والغرب، واتصال العرب المباشر بغيرهم من الشعوب المجاورة وفي مقدمتهم الفرس واليونان ولا سيما في العصر العباسي، ازدادت الحاجة إلى الترجمة، فقام العرب بترجمة علوم اليونان، وبعض الأعمال الأدبية الفارسية، فترجموا عن اليونانية علوم الطب والفلك والرياضيات والموسيقى والفلسفة والنقد. وبلغت حركة الترجمة مرحلة متطورة في عصر الخليفة هارون الرشيد وابنه المأمون، الذي يروى أنه كان يمنح بعض المترجمين مثل حنين بن إسحق ما يساوي وزن كتبه إلى العربية ذهباً، ومن المعروف أن المأمون أسس دار الحكمة في بغداد بهدف تنشيط عمل الترجمة، ومن المعروف أن حنين بن إسحق ترجم وألف الكثير من الكتب وفي علوم متعددة، وتابع ابنه إسحق بن حنين بن إسحق هذا العمل. ففي القرن التاسع الميلادي، قام العرب بترجمة معظم مؤلفات أرسطو، وهناك مؤلفات كثيرة ترجمت عن اليونانية إلى العربية، وضاع أصلها اليوناني فيما بعد، فأعيدت إلى اللغة اليونانية عن طريق اللغة العربية أي أنها فيما لو لم تترجم إلى اللغة العربية لضاعت نهائياً.

أما شيخ المترجمين فهو "حنين بن إسحاق" أوحده عصره في علم الطب من قبيلة عباد العربية المسيحية وموطنها "الحيرة" (العراق)، ولد في 809 م وكان أبوه عطارا مما أتاح له الاهتمام بالعقاقير والطب، وقد تتلمذ على يد ابن ما سويه، ثم ذهب إلى بيزنطة لدراسة اللغة اليونانية، وعاد إلى البصرة ليكمل دراسة اللغة العربية وقد أمر المأمون بإحضاره وسلمه أمر بيت الحكمة وأمره- وكان لا يزال حديث السن- بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين إلى العربية وإصلاح ما ينقله غيره؛ وقد التحق به بعدئذ في هذا العمل ابنه إسحاق.

وكان المترجمون من أمثال حنين بن اسحق وثابت بن قرة يتقنون اللغة العربية والسريانية وكذلك العلوم التي يترجمونها. وكان حنين بن اسحق قد عاش فترة في اليونان بهدف دراسة اللغة اليونانية، وكان يترجم الجملة بجملة تطابقها في اللغة العربية، ولا يترجم كل مفردة على حدة، كما ترجم يوحنا بن البطريق وابن الحمصي وغيرهما. وكذلك فإن الطريقة التي اتبعها حنين بن اسحق هي الأفضل. من بين الكتب التي ترجمها حنين بن إسحق كتاب "الأخلاق" لأرسطو، وكتاب "الطبيعة" للمؤلف نفسه. وكان العرب في العصر العباسي يهتمون بدقة الترجمة ولهذا ظهرت عدة ترجمات لنص واحد، فعلى سبيل المثال ترجم أبو بشر متى بن يونس كتاب "الشعر" لأرسطو (384-322) ثم ترجمه مرة ثانية يحيى بن عدي. فتكرار الترجمة يدل على الحرص على دقتها.

وقد أدى بيت الحكمة دورا كبيرا في سير حركة الترجمة إذ كان مقرا لاجتماع علماء العصر وتناولهم النصوص التي كانت ترد إليهم في مختلف الميادين العلمية والفلسفية اليونانية غالبا مشغولين ضمن خلايا مصغرة موزعين المهام بينهم بشكل منظم متبعين مخطط عمل يسير وفق مراحل أهمها:

- مقابلة النص الأصلي ونقد المراجع (وضع النص في إطاره الحقيقي).
- نقل النص من قبل المترجم.
- صياغة النص من قبل المحرر المساعد للمترجم.
- المراجعة والتنقيح.

كما كانت هناك أعمال أخرى يتولاها هؤلاء المختصون إلى جانب الترجمة تتمثل في النسخ والتجديد وتصنيف الكتب، وكان يتم توزيع العمل وفقا لاختصاص المترجمين في هذا المجال أو ذاك، وقد وضع على رأس كل مجموعة مراجع أو مصحح... عمل جماعي كان يتم على مرحلتين: الترجمة من اليونانية إلى السريانية، ثم من السريانية إلى العربية، ثم تأتي عملية صياغة المضمون والمراجعة على مستوى الشكل يتولاها رؤساء الترجمة ومنهم حنين الذي حرص على أن تأتي الترجمات واضحة لغير المختصين، كي يتحقق القبول والفهم لدى القارئ.

وإذا عدنا إلى الطريقة التي كان يعتمد عليها حنين بن إسحاق وجماعته في الترجمة، نجد أنها أتت مقسمة على ثلاث مراحل: تتعلق المرحلة الأولى بنص البداية حيث تتم الموازنة بين المخطوطات المختلفة للنص الواحد، وكذا نقد المصادر لتحديد النص الصحيح والأصيل، وتأتي بعدها المرحلة الثانية والمتمثلة في العملية الترجمية والتي تبدأ بتحليل النص وتأويله، وفيها يسخر الناقل كل معارفه المسبقة في اللغة والمضمون، أما تنقيح الترجمة فقد تجلّى بإعادتها بشكل كامل، حين تدعو الحاجة إلى إدخال تعديلات أساسية عليها، وفي المرحلة الأخيرة تتم مراجعة نص الوصول من حيث الشكل اللغوي العربي السليم.

لقد سار المترجمون العرب القدامى على طريقتين:

الطريقة الأولى هي طريقة يوحنا بن البطريق وغيره وهو أن ينظر إلى كلمة مفردة من الكلمات الأجنبية (اليونانية مثلا) وما تدل عليه من المعنى فيأتي الناقل بلفظة مفردة من الكلمات العربية التي ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى فيثبتها وينتقل إلى الأخرى حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبه.

الطريقة الثانية في التعريب هي طريقة حنين بن إسحاق وغيره وهو أن يأتي بالجملة فيحصل معناها في ذهنه ويعبر عنها في اللغة الأخرى بجملة تطابقها سواء ساوت الألفاظ أم خالفتها.

ترجمة كتاب "كليلة ودمنة": ترجمه عبد الله بن المقفع حوالي 750، ألف كتاب "كليلة ودمنة" باللغة السنسكريتية الفيلسوف الهندي بيدبا وقدمه هدية لملك الهند دبشليم الذي حكم الهند بعد مرور فترة من فتح الاسكندر المقدوني لها، وكان ظالما ومستبدا، فألف الحكيم بيدبا الكتاب من أجل إقناعه بالابتعاد عن الظلم والاستبداد، وبهدف إسداء النصيحة الأخلاقية. والكتاب مجموعة من الأمثال على أسنة الحيوانات.

وقام الطبيب الفارسي برزوية بنقل الكتاب من بلاد الهند وساهم بترجمته من السنسكريتية إلى الفارسية في عهد كسرى أنو شروان ووزيره بزرجمهر، الذي له دور كبير في تأليف وترجمة الكتاب. وقام عبد الله بن المقفع وهو فارسي الأصل في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور بترجمته من الفارسية إلى العربية وأضاف إليه بعض الأشياء، وكان هدف عبد الله بن المقفع من ترجمة "كليلة ودمنة" تقديم النصيحة للمنصور للكف عن ظلم العباد، فأراد ابن المقفع من كتابه الإصلاح الاجتماعي، والتوجيه السياسي، والنصح الأخلاقي. ولكنه نفسه لم ينج من الظلم فقتله الخليفة. لقد حدث أن أعيدت ترجمة كتاب "كليلة ودمنة" إلى اللغة الفارسية عن النص العربي، لضياح الترجمة الفارسية وهو الأمر نفسه الذي حدث لبعض النصوص الإغريقية وكانت لغة عبد الله ابن المقفع جميلة بعيدة عن الابتذال وتمت الترجمة، كما هو معروف عن لغة وسيطة، لأن الكتاب بالأصل كتب باللغة الهندية القديمة، وليس باللغة الفارسية. وجرت على الكتاب بعض التعديلات قام بها الطبيب الفارسي برزوية أثناء الترجمة إلى الفارسية وكذلك أضاف الوزير الفارسي بزرجمهر بعض الأشياء إلى الكتاب مثل ما يخص بعثة برزوية إلى بلاد الهند، وأثناء الترجمة من الفارسية إلى العربية أضاف عبد الله بن المقفع بعض الأشياء، ولقد أشار إلى هذه الأمور فاروق سعد في مقدمته لكتاب كليلة ودمنة.

وبالوقت ذاته بدأت الترجمة في العصر العباسي من اللغة العربية إلى اللغات الأجنبية، ولقد أشار المستشرقون إلى دور العرب في الحضارة الأوروبية، في هذه الفترة. كما أشار بعض الأدباء الغربيين إلى فضل علوم العرب على الغرب نذكر من هؤلاء الأديب الألماني غوته Goethe (1749-1832).

لقد حاول الجاحظ وهو كاتب وناقد بارع أن ينظر للترجمة من خلال ملاحظاته وآرائه التي كان يبيدها حول الترجمات المختلفة ناقدا مطلعاً على السيئ والردىء من الكتب المترجمة مدركاً خطورة التعامل مع اللغات

والنصوص، مقدرا مدى أهمية عنصر الأمانة في النقل. وقد ذكر محمد الديدواوي في كتابه "الترجمة والتواصل" الخطوط العريضة لنظرية الملاحظ اخترنا منها:

- لا بد للترجمان أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها.
- لا بد للترجمان أن يكون بيانه في نفس الترجمة في وزن علمه في نفس المعرفة.
- ضرورة البيان والتبيين.
- المراجعة والتدقيق وتلافي الخطأ
- إذ يحذر الملاحظ من خطأ المترجمين إذا ما تعلق الأمر بكتب الدين قائلا أن: "الخطأ في الدين أضر من الخطأ في الرياضة والصناعة والفلسفة والكيمياء".

2- الغرب و الترجمة:

يعود تاريخ الترجمة عند الغرب إلى ترجمة التوراة السبعونية، التي تعدّ أول ترجمة للعهد القديم من العبرية إلى الإغريقية. عمل على ترجمتها سبعون أو اثنان وسبعون مترجما، إذا أرسل كبير الكهنة في اسرائيل آنذاك ، المترجمين إلى الاسكندرية، بناء على طلب حاكم مصر، لترجمة التوراة لصالح الحالية اليهودية الموجودة في مصر والتي لم يكن بمقدورها قراءة العهد القديم بلغته الأصلية، العبرية. أصبحت هذه الترجمة فيما بعد الأساس لترجمات أخرى، فقد ترجمت فيما بعد إلى اللغة اللاتينية والقبطية والأرمينية والجورجية واللغة السلافية. و"على الرغم من أن (ترجمة التوراة السبعونية) كان رديئة من الناحية العملية .إلا أن هذا لم يقوّض صورتها، بل على النقيض من ذلك ما زالت هي الترجمة التي تعتمد عليها الكنيسة اليونانية حتى يومنا هذا، وكانت الأساس لعدد من الترجمات إلى لغات أخرى في بلدان البحر المتوسط القديمة . "وفي العصور الوسطى تأثرت الترجمة نسبيا، والسبب في ذلك يعود إلى "الاعتقاد السائد آنذاك وهو أن الشخص لا يعدّ مفكرا وعالما بالمعنى الحقيقي ما لم يكتب باللغة اللاتينية"، لذا كتب المفكرون والعلماء أفكارهم مباشرة باللغة اللاتينية التي كانوا يجيدونها بالإضافة إلى لغتهم الأم "....ويصفها كل واحد منهم بأنا إلهام و فن أصيل يعتمد على ليونة التعبير و ليس صعوبته.

برزت الترجمة أيام الإمبراطورية الرومانية حيث قام الخطيب الروماني شيشرون Cicéron في القرن الأول قبل الميلاد بنقل العديد من الأعمال اليونانية قصد جعلها في متناول بني جلدته و راح يفكر في "مبادئ نظرية في الترجمة". وقد انشغل المترجمون آنذاك بنقل النصوص المقدسة في التوراة والإنجيل ففي هذه المرحلة لمع اسم عميد الترجمة "سان جيروم" Saint Jérôme الذي نقل التوراة في 384 وأول من جاء بمبدأ "ترجمة المعاني لا الكلمات"

« Sense for sense and not word for word »

و يمكن أن تتلخص طريقة النقلة منذ القرن السابع عشر في ترجمة النصوص ضمن ثلاث طرائق رئيسية: تتسم الطريقة الأولى بالحرفية الشديدة فتتم مقابلة الكلمات في لغة بمثيلاتها في لغة أخرى، أما الطريقة الثانية فتتمثل في إعادة الصياغة دون التقيد بالأصل هذا ما كان يضمن الحفاظ على عنصر المعنى و بهذا يعتبر نقلا أميناً و تأتي في الأخير الطريقة التي تتدرج من المطابقة مع الأصل إلى التقليد... إلى أن تصل إلى التحرر كلياً عن النص الأصلي.

بالرغم من ذلك، نجد أن التفكير في الترجمة باعتباره مجالاً مستقلاً في دراسته كان غائباً تماماً، فكل ما تم جمعه من كتابات حول الترجمة يمكن أن يصنف في قسمين اثنين:

- ملاحظات عرضية حول الترجمة تتخلل نصوصاً تعالج مواضيع مختلفة لا تمت بأي صلة إلى الترجمة.
- المقدمات و الملحقات التي تعود مترجمو العصور الوسطى حتى بداية النهضة أن يفتتحوها بها أعمالهم
- وقد صرح "جورج مونان" George monnin " أن كل ما تم التوصل إليه من مادة في ذلك العصر يكون مذهباً تجريبياً للترجمة لا يستهان به لكنه يظل مذهباً تجريبياً ليس إلا "